فتنة الزنج (*)

ورثاء البصرة فى شعر ابن الرومى

للأستاذ محمود الشرقاوى

فى هذا الوقت الذى نسمع فيه ونقرأ أنباء ذلك الخراب الذى يصيب المدائن العظيمة من هذه الحرب بين انجلترا وألمانيا ؛ وذلك العذاب الذى يصبّ على الآمنين من أهلها ، ينزل عليهم من السماء ، ذكرت قصيدة من عيون الشعر وعجائبه قالها « ابن الرومى » فى حال تشبه هذه الحال ، هى قصيدته فى رثاء البصرة . وقبل أن أقدم لقراء « الرسالة » هذه القصيدة العجيبة أذكر خلاصة سريعة من التاريخ عن « فتنة الزنج » الذين جرى على أيديهم خراب البصرة فى القرن الثالث الهجرى :

صاحب الزنج

فى شهر شوال من سنة خمس وخمسين ومائتين ، خرج فى فرات البصرة رجل وزعم أنه على بن محمد بن حمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ؛ وجمع الزنج الذين كانوا يسكنون السباخ وعبر دجلة فنزل الدينارى ، وكان قد شخص من سامرا سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين ، فادعى بها أنه على بن عبد الله بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله ابن العباس بن على بن أبى طالب ، ودعا الناس بهجر إلى طاعته ، فاتبعه جماعة كثيرة من أهلها ومن غيرهم . وكان أهل البحرين قد أحلّوه بمحل نبى ، وجبى الخراج ونفذ فيهم حكمه ، وقاتلوا أصحاب السلطان بسببه

ذلك هو مبدأ ظهور صاحب الزنج كما رواه ابن الأثير فى تاريخه الكامل ، ومنه نعرف أنه رجل دعىّ أفاق ، كان اسمه الحقيق على بن محمد بن عبد الرحيم ونسبه فى عبد القيس ، وأمه من قرى الرى ، وأن أمه لأبيه كانت جارية سندية ، وكان متصلاً بجماعة من حاشية المنتصر ، كان معاشه منهم بمدحهم ويستميحهم بشعره منهم ومن غيرهم

وقد جعل هذا الرجل العجيب لنفسه خطة بارعة للوصول إلى غرضه والحصول على ما يبتغيه من الحكم والسلطان . فجعل لنفسه زوراً هذا النسب الشريف يصل به إلى الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه . مرة على أنه ابن محمد بن أحمد بن عيسى إلخ . . . ومرة على أنه ابن عبد الله بن محمد بن الفضل . وهو فى كليهما واصل نسبه إلى على بن أبى طالب . ثم استولى على جماعة من ضعاف العقول فى أهل البحرين ، فجعل نفسه بينهم نبياً يزعم لنفسه الآيات حتى قال : « إنى فكرت فى الموضع الذى أقصده حيث نبت بى البلاد فأطالنى غمامة وخوطبت منها فقيل لى: إقصد البصرة »

ومن الدهاء العجيب الذى تحايل به صاحب الزنج أنه بدأ دعوته بين العبيد والدهماء والأراذل من الشعب فزعم أنه ناصرهم وخارج بهم من الذل والفقر والعبودية

ذكر ريحان — أحد أصحابه الأول — قال : « كنت موكلا بغلمان مولاى أنقل لهم الدقيق ، فأخذنى أصحابه فساروا بى إليه وأمرونى أن أسلم عليه بالأمرة ففعلت . فسألنى عن الموضع الذى جئت منه فأخبرته . وسألنى عن أخبار البصرة فقلت : لا علم لى . وسألنى عن غلمان السودجيين وعن أحوالهم وما يجرى لهم فأعلمته . فدعانى إلى ما هو عليه فأجبته فقال : إحتل فيمن قدرت عليه من الغلمان وأقبل بهم إلى . ووعدنى أن يقوّدنى على من آتيه به واستحلفنى ألا أعلم أحداً بموضعه وأن أرجع إليه ؛ وخلى سبيلى »

« وما زال يدعو غلمان أهل البصرة ويقبلون إليه للخلاص من الرق والتعب ، فاجتمع عنده منهم خلق كثير فخطبهم ووعدهم أن يقوّدهم ويملّكهم الأموال . وحلف لهم بالأيمان ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الاحسان إلا أتى به إليهم »

وكان من الطبيعى وقد دخل هذا الأفاق على العبيد من هذا الباب وأطمعهم أن يكونوا أحراراً ، بل وعدهم أن يملكهم الأموال وهم أنفسهم مملوكون لمواليهم ، كان من الطبيعى أن يجد من نفوسهم قبولاً لدعوته وحماسة فى الدفاع عنها

فهذا الرجل الماكر أقام دعوته على ثلاثة عمد رواسخ : أولها هذا النسب الشريف الذى ادعاه لنفسه متصلاً بالحسين بن على . وثانيها دخوله على المستضعفين الأذلاء من العبيد حتى قال الطبرى إنه جمع لدعوته الزنج الذين كانوا « يكسحون السباخ » وكذلك فى النجوم الزاهرة . وهؤلاء يدفعهم ما هم فيه من البؤس والتعس والشقوة إلى المغامرة والاندفاع . وكيف بهم يقودهم رجل شريف من نسل الامام على يمنيهم ويعدهم ويجعل نفسه

(*) الزنج بفتح الزاى (وتكسر) جيل من السودان وهم الزنوج « القاموس والمصباح »

موكلا بخلاصهم من الرق والذل والفقر والهوان . ويصل نفسه بهم حتى يكون وهو الرجل الشريف « صاحب الزنج »

وثالث هذه العمد ادعاؤه النبوة أو ما هو قريب منها . وقد آمن بدعوته قوم من هؤلاء العبيد . وبذلك أثار فى نفوسهم أشد ما فيها من العواطف قوة وجوحاً من العواطف : الإيمان والنفع الذاتى بعد الوصول إلى الحرية ، وهى أعز ما تشتهيه النفس الإنسانية .

ظهور الفتنة

لا أريد بعد ذلك أن أتابع الخطوات التى مشت بها فتنة الزنج فى العراق ؛ ولكنى أبرز من ذلك أمرين يستطيع القارئ أن يعرف بهما إلى أى حدّ استطاع صاحب الزنج أن يكوّن مع عبيده السود قوة قاهرة تخيف الولاة وتحارب جند الخليفة ، وتدخل الرعب فى قلوب الناس

أذكر أن صاحب الزنج استطاع فى سنتين اثنتين أن يأخذ من جند الخليفة بلاد الأبلة وعبادان والأهواز والبصرة ، واستطاع فى هاتين السنتين (وهما سنتا ست وخمسين ومائتين وسبع وخمسين) أن يحارب من الولاة ومن القواد سعيدا الحاجب وابن المدبر ، ومسرورا البلخى وموسى بن بغا وعدة غيرهم ، واستطاع أن يهزم كثيرين منهم وأن يأخذ منهم ما أخذ من البلاد

وأذكر هذه القصة التى رواها ابن الأثير تدل على ذلك الفزع والرعب الذى ملأ به صاحب الزنج قلوب الناس ، وذلك الحقد والجبروت الذى ملأ به قلوب زنوجه العبيد على أسيادهم ومواليهم

يقول ابن الأثير إن موالى هؤلاء العبيد وقد رأوا سلطان صاحب الزنج على عبيدهم وخافوا بطشه أتوا إليه « وبذلوا له على كل عبد خمسة دنانير ليسلم إلى كل منهم عبده . فبطح أصحابهم وأمر كل من عنده من العبيد فضربوا مواليهم . . . أو وكيلهم كل سيد خمسمائة صوت . ثم أطلقهم »

فتأمل ذلك الرجل الذى يبطح السيّد المالك ليضربه عبده ومملوكه خمسمائة صوت . ولا يبيع هذا العبد بخمسة دنانير لسيده وصاحب رقبته ، وهو لا يملكه ... !

خراب البصرة

وبقى هكذا حال صاحب الزنج وزنوجه يستفحل أمرهم ، ويستشرى داؤهم ، حتى كان شهر شوال من سنة سبع وخمسين ومائتين ، فاجتمع الأعراب من البحرين بناصرة محمد بن يزيد المدارمى ، وتجمع عليهم كثيرون من مثلهم أتباع صاحب الزنج ، وأحاطوا البصرة من أطرافها فدخلوها وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة بقيت من شوال . وأباح صاحب الزنج لزنوجه البصرة يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت يفعلون بها وبأهلها ما يشاؤون ... ! حتى حرق المسجد وأحرقت البصرة فى عدة مواضع ، واتسع الحريق من الجبل إلى الجبل

وقدّمت الخدعة إلى أهل البصرة بأن من دخل دار فلان فهو آمن ؛ فجاء أهل البصرة قاطبة إلى دار الأمان ثم غُدر بهم وقتلوا ، فكان السيف يعمل فيهم وأصواتهم مرتفعة بالشهادة ، فقتل ذلك الجمع كله ولم يسلم إلا النادر منهم . وعظم الخطب بالقتل والتحريق والنهب ؛ فمن كان من أهل اليسار أخذوا ماله وقتلوه ، ومن كان فقيراً قتلوه لوقته . وبقوا كذلك عدة أيام[1]

ابن الرومى

هذه الصورة الدموية البشعة التى تلخصها تلك السطور السابقة عن خراب البصرة على يد الزنج قد أوحت لعلى بن العباس ابن جريج (ابن الرومى) قصيدة عجيبة هى من غرائب الشعر العربى وضوح بيان وقوة تصوير وإعجاب خيال وصدق عاطفة . وهى من بدائع الشعر العربى كله . هذه القصيدة هى التى نقدمها لقراء الرسالة

(البقية فى العدد القادم) محمود الشرقاوى

(١) اعتمدت فى كتابة هذا الفصل على رواية الكامل فى التاريخ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى

مملكة الجمال والحب والحق والخير

بقلم الأستاذ محمود على قراعة المحامى

يبحث فى : ماهو الجمال ؟ هل الجمال حقيقة أم مجرد ظهور ؟ ما هى أصول الجمال الحسى ؟ ما الصلة بين الجمال والتناسب فيه وبين اللذة والألم ؟ ماجمال الفن والحكم والأخوة الانسانية وروح الجماعة ؟ وما جمال الشاعرية والأسلوب والخيال والفكاهة ؟ لوامع الحب وسمائه وأسراره ، الحب الفاسد والحب الشريف ، ما الحب الروحى للجمال ؟ وما الصلة بين الجمال والسقوط ؟ هل فى الجمال الحسى تقييد ؟ وهل من الجمال التقييد ؟ الصلة بين الجمال والكمال الخلقى ؟ ما هو أسمى أنواع الحب ؟ هل الحب حقيقة أم ظاهرة ؟ حب الله . الخ الخ ...

الكتاب فى ٢٨٠ صفحة على ورق مصقول

وثمنه ٥ قروش صاغ والبريد ٢ قرشان

ويطلب من مكتبة الجامعة بشارع محمد على بمصر